﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾ [سبأ: 53 - 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لكلِّ وقتٍ واجِبُه

لمّا بيّن في الآية السّابقة أنّهم لا إمكانَ لهم بالظَّفر بمطلوب الدّنيا منَ التّكاليف وهم في الآخرة، ولا يقعُ لهم حسابٌ ولا جزاءٌ وهم في الدنيا، بيّن الله تعالى هنا أنّ إيمانَهم لا نفع فيه بسبب أنّهم كفروا به من قبلُ، وقد خرج وقتُ الدّنيا، فلا يمكنُ لهم استدراكُ ما فاتهم فيها، وإنْ أمْكَن فلا يُقبَلُ ولا ينفعُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾: (قذف) أصلٌ يدلُّ على الرّمي والطّرح، وهو: الرّميُ البعيد، والدَّفْعُ بغلَظٍ إلى مسافة بعيدة[2]، ولمّا كان القذف: هو الرّميَ باليد من بُعدٍ، عُبّر عنه في الآية للدّلالة على القول بدون تروٍّ ولا دليلٍ[3].

2) ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: (غيب) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تستّر الشّيء عنِ العيون، ثم يُقاس، ومن ذلك الغَيْب: ما غابَ ممّا لا يعلمُه إلّا الله، ويُقال للشّيء: غَيْبٌ وغائبٌ باعتباره بالنّاس لا بالله تعالى، فإنّه لا يغيبُ عنه شيء[4]، ومعنى ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ في الآية: أي: من حيث لا يدركونه ببصرهم وبصيرتهم[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قذف).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (غيب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غيب).

3) ﴿وَحِيلَ﴾: أصلُ (حول) يدُلُّ على انفِصالِ الشَّيءِ عن غَيرِه، والحِوالُ كُلُّ شيءٍ حالَ بَين اثْنَيْنِ، وهو الحاجِزُ الذي يحيلُ بين الشّيء وغيره[1]، والمرادُ به في الآية: أي: حُجِزَ ومُنِعَ[2].

4) ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾: (شيع) أصلانِ يَدُلُّ أَحدُهُما على مُعاضدةٍ ومساعفةٍ، والآخرُ عَلَى بَثٍّ وإشادَةٍ[3]، والأشياعُ: جمعُ شيَعٍ، والشّيَع: جَمعُ شيعة، وهم كُلُّ قَومٍ اجتَمَعوا على أمرٍ، وأصلُه مِنَ التَّشييعِ، وهو التَّتَبُّعُ والتَّقويةُ، والمرادُ به هنا: بأشباهِهم مِن كَفَرةِ الأُمَم، كقوم نوحٍ وفرعون وعاد وسائرِ المُتْرَفين[4].

5) ﴿مُّرِيبٍ﴾: أصلُ (ريب) يدُلُّ على شَكٍّ، والرّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمَأْنينةِ، والرّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السّوءِ، فهي قِسمٌ مِنَ الشَّكِّ[5]، و﴿مُّرِيبٍ﴾ هنا اسمُ فاعل، أي: موقِعٌ في التّهمة ومورِدٌ للشّكّ وباطل الظّنّ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ يومَ القيامة للمفرّطين شأنٌ يُشتَهى بعدما كان شأنًا يُستثقَل ويُمَجّ

يخبر المولى سبحانه أنّ هؤلاء المُدّعين الإيمانَ في ساعة الفزع، قد كفروا بهذا الدّين في الدّنيا، وكانوا ينطقون بأقوالٍ لا علمَ لهم بها، وبينها وبين الحقّ والصّدق مسافاتٌ بعيدةٌ، فقد نسبوا إلى الله تعالى الولدَ والشّريك، وقالوا في الرّسول ﷺ: إنّه ساحر، وفي شأن البعث: إنّه لا حقيقةَ له، وفي شأن القرآن: إنّه أساطيرُ الأوّلين[7]، وهكذا كانوا يرمون بالظّنّ من جهة بعيدة عن إصابة الحقّ، ليس

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حول - حيل)، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حول).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 73.
(3) ابن فارس، المقاييس: (شيع).
(4) الراغب، المفردات: (شيع)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 309، والواحدي، البسيط: 8/ 204، والنيسابوري، غرائب الفرقان: 5/ 504.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، و الأزهري، تهذيب اللغة: (ريب).
(6) الشوكاني، فتح القدير: 2/ 576.
(7) طنطاوي، الوسيط: 11/ 311.

لهم فيها مستندٌ لظنّهم الباطل، فلا سبيلَ لإصابتهم الحقَّ، كما لا سبيل للرّامي إلى إصابة الغرضِ من مكان بعيد، وكانت نتيجةُ عدمِ صلاحية إيمانهم في غير الوقت، أنْ حُجِزَ بين هؤلاء الكفّار وما يشتهون منَ التّوبة والعودة إلى الدّنيا ليؤمنوا، كما فعل اللّه بأمثالهم من كفرة الأمم السّابقة، إنّهم كانوا في الدّنيا في شَكٍّ من أمر الرّسل والبعثِ والحساب، مُحْدِثٍ للرّيبَة والقلق، فلذلك لم يؤمنوا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾:

جملةُ: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ حاليّةٌ منَ الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ أو منَ الفاعل في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ في جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: وقالوا آمنّا به والحالُ أنّهم قد كفروا به من قبلُ، فالواو في قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ مجتلَبَةٌ لضمّ هذه الجملة إلى الجملة التي قبلها في اجتماع معنيَيهما في نفس الوقت، ولذلك تسمّى واوَ الوقت، أي: اجتمع قولُهم: آمنّا به، مع كفرِهم به من قبلُ، فثبوتُ كفرهم مجتمعٌ في وقتٍ واحد مع ادّعاء إيمانهم[1].

الكافرُ لا مبدأَ له غيرُ النّفعيّةِ

بلاغةُ الطّباقِ بين الإيمانِ والكفرِ:

بين قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ هنا، وقولِه تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ في الآية السّابقة جناسُ إيجابٍ فائدتُه تسجيلُ كذبهم عليهم وتوكيدُه بـ (قد) التحقيقيّةِ، وصيغةِ الفعل الماضي الدّالِّ على تحقّق فعلِ كفرِهم ووقوعِه منهم في الدّنيا بعد تصريحهم في الآخرة بالإيمان، وفي ذلك ترسيخُ أنّ إيمانهم مُدّعىً لا نفعَ منه؛ إذ صرّحوا به خوفًا بعد فزعهم من رؤية شدّةِ العذاب، فضلًا عن أنّ الدّنيا هي محلُّ قَبول الإيمان وليست الآخرة.

الآخـــرةُ محـلُّ حـــســـابٍ، ولـيـسـت محـلَّ قَبولِ الإيمان

(1) صافي، الجدول: 11/ 244، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 298، 300.

معنَى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

كَفَروا بما آتاهم من قبلُ في وقت التّمكّن منَ الإيمان

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ من قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ للتّعدية، وهي الباءُ المعاقبة للهمزة، وتسمّى باءَ النّقل، ومعناها تأكيدُ تعدية فعلِ الكفر إلى مفعوله الهاء العائدةِ على الرّسول ﷺ؛ إذ وصفوه بالسّاحر، وعلى البعث؛ إذ أنكروه، وعلى القرآن إذ كذّبوه.

معنَى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبْلُ﴾:

الزّمانُ هو العُمُر، وكلٌّ يُسألُ عن زمنه

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ ابتدائيّةٌ، ولم يقل: (كفروا به قبل) بإسقاط الجارّ؛ لعدم استغراق زمانِ القَبليّة؛ لأنّ زمن القَبليّة في الدّنيا من زمان تكليف، وما قبل زمان التّكليف حيث كانوا غيرَ مستوفين لشرائط أهليّة التّكليف، فأراد بالقَبليّة زمانَ التّكليف فقط، لا جميعَ زمانهم في الدّنيا، ولذلك أدخل ﴿مِن﴾، لإرادة أقربِ زمان منهم، وهو زمنُ تكليفهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالقَبليّة في القيد ﴿مِن قَبْلُ﴾:

حينَ يرتبطُ الكلامُ بزمنٍ ما، فلا بدَّ من تحديده وتوثيقه بالقرائن

قولُه تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بالفعل: ﴿كَفَرُواْ﴾، وقيّده به؛ للدّلالة على مناط كفرهِم، بتعيين ظرْفِه، وهو أوانُ التّكليف الذي دلّت عليه القَبْليّة، ولو قال: (وقد كفروا به) ولم يذكرِ الظّرف؛ لكان إبهامًا وإيهامًا[1].

لطيفةُ حذفِ المضافِ إليه ﴿قَبْلُ﴾:

لم يُذكرِ المضافُ إليه في قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، فلم يُقل: (من قبل أيّ شيء تحديدًا)، طلبًا للإيجاز؛ لكون المقصودِ بالقَبليّة واضحًا، وهو زمنُ التّكليف والاختيار في الدّنيا[2].

موقعُ جملةِ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾:

التّمادي في الكذبِ والبُهتانِ وادّعاء العلمِ والمعرفةِ

جملةُ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ عطفٌ على جملة الحال ﴿وَقَدْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 140.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 140.

كَفَرُواْ﴾ فهي حالٌ ثانية، والتّقديرُ: (وكانوا يقذفون بالغيب)[1]، فلم يكونوا يكتفون بالكفر، وإنّما يُصرّون عليه متمادين في الكذب والزّور بكلامٍ من غير تأنٍّ، ولا علمٍ ولا دليل.

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالقذف:

رميُهمُ الكلامَ بعيدًا عن موقعه المُستحَقّ

أصلُ القذف: الرّمي باليد من بُعْدٍ، وهو هنا مستعارٌ للقول بدون تروٍّ ولا دليل؛ إذ نزّلَ الأقوالَ الواردة على غير منازلها منَ الحقّ والصّدق منزلةَ رمْيِ الشّيء بعيدًا عن مَرماه، وكأنَّ للأقوال مَرمًى قريبًا، وهي مواقعُها في الصّدق والحقّ، ومرمًى بعيدًا، وهي مواقعُها في الكذب والزّور، ففي استعمال القذفِ هنا في مجاري الأقوالِ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ شبّهها بمرامي المقذوفات البعيدةِ، أي: يتكلّمون فيما غاب عنِ القياس من أمور الآخرة بما لا علمَ لهم به، إذ أحالوا البعثَ والجزاء وقالوا لشركائهم: هم شفعاؤنا عند اللّه[2].

القذفُ في القول هو الكَذِبةُ التي لا التباسَ في بُطلانِها

ويصحُّ إجراءُ التّركيب في قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ على طريقة الاستعارة التّمثيليّةِ، بتشبيه حالهم في تقوّل الأباطيلِ من غير عِلمٍ ولا برهانٍ بحالِ من يقذفُ شيئًا وهو غائبٌ عنه لا يراه، فهو لا يصيبُه البتّة[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾:

مجيءُ الفعل على صيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لحكاية الحالةِ الماضيّة، واستحضارِ كونِها كانت حالًا مستمرّةً لهم ومتجدّدةً، فقد كان ذلك ديدنَهم[4].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾:

حُذفَ مفعولُ ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ من قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لدلالة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.

فعل ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ﴾ عليه، أي: يَقذفون بمقولات الكفر وأفاعيلِه، فيرمون بها جزافًا[1].

معنَى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ للملابسة، أوِ السّببيّة، والمعنى على الملابسة: أي: يحكمون على ما غاب عنهم بالظّنّ وعدمِ العلم، ويكون قوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ضدَّ قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3][2] أي: يؤمنون بحقّ الغيب المعلومِ الثّابتِ المقطوعِ به، كأنّه قيل: يقذفون الباطلَ مُلتبِسًا بما غاب، فلم يشهدوه أو يعلموه، أوِ المعنى: يقذفون الأحكامَ حالَ كونِهم ملتبسين بالغيب، أي: وهم غائبون عمّا يحكمون عليه، فيقعُ حكمُهم موقِعَ الزّيف وعدم الإصابة[3]، والسّببيّة على معنى: يقذفون بالباطل بسبب كُفرِهم بالغيب الذين كُلّفوا بالإيمان به، فالكلامُ على تقدير مضافٍ.

من أخذَ الغيبَ بغيرِ الوحي فقدِ افترى الكذبَ

معنَى (أل) في: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

(أل) في ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ من قوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ للعهد، أي: يتكلّمون بما غاب عنهم من حقائق الإيمان؛ منَ البعث والحساب، والجنّة والنّار[4]، فكان قوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ﴾ في معنى: (ويكفرون)، كأنّه قيل: ويكفرون بهذه الأمور الغيبيّةِ بنفيها أو تحريفِها.

الغيبُ هو الحقُّ الذي غاب عنِ الشّهود في نفسِه

بلاغةُ الجناسِ التّامِّ بين الفاصلة هنا والتي قبلها:

بين قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾، وقوله: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ جناسٌ تامٌّ في: ﴿مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ في الموضعين، في عدد الحروف وهيئتِها وترتيبِها، واختلافٍ في المعنى، فالمكانُ

من كان بعيدًا في الدّنيا، فهو في الآخرة في بُعْدٍ، فالجزاءُ من جنس العمل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 217.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 73.

البعيد في الموضع الأوّل: الآخرة، وفي الموضع الثّاني: الدّنيا[1]، والجمع بينهما استحضارُ عِظَةٍ لحالَين أحدُهما حالٌ، والآخرُ مآلٌ؛ والجزاءُ من جنس العمل.

بلاغةُ الوصلِ في ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾:

جملةُ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ معطوفةٌ على الجُمل الفعليّةِ قبْلها: ﴿فَزِعُواْ﴾ ﴿وَأُخِذُواْ﴾، وعلّةُ وصلها بهما أنّ قوله: ﴿وَحِيلَ﴾ داخلٌ ضمْنَ أفراد الوعيدِ التي لحقت بهم، وهي: الفزعُ، والأخذ، والحيلولة[2].

من حادَ عنِ الإيمان مختارًا في الدّنيا حيلَ بينه وبينه في الآخرة

دلالةُ التّعبيرِ بفعل الحَيلولة:

التّعبيرُ بفعل الحَيلولة في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ ليدلَّ به على الانفصال القهريّ الذي جرى عليهم؛ لعزْلِهم عن مُشتهياتِهم التي عزّ عليهم فواتُها، فالحَيلولة تفيدُ العزلَ القهريَّ الذي يورث الحزَنَ والإيلامَ النّفسيّ؛ لحصوله بعد ظنّ الإمكان، وتعوّدِ التّوقّع والحصول، فيكون الانحجابُ أقوى وأقهرَ وأنكى[3].

العزلُ القهريُّ عمّا ينفعُ يورثُ الحزنَ والجزعَ

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿وَحِيلَ﴾ للمفعول:

جاء الفعلُ ﴿وَحِيلَ﴾ على بناء ما لم يُسمَّ فاعِلُه، في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنّ حصول الحَيلولة بأسهلَ ما يكون، فلِسهولة الفعلِ واقعًا طوى الفاعلَ ولم يسمِّه لفظًا؛ ولأنّ النّاجعَ فيهم بالإيلامِ والنّكاية هو نفْسُ الحيلولة، لا كونُها من فاعلٍ معيّن، وأيضًا في طيّ الفاعل تسريعٌ بقهرهم بتلك الحيلولة، وتمحيضٌ لها في إجرائِها عليهم[4].

يُسْرُ قَهْرِهم، وسرعةُ إيقاعه، وجْـهُ ذلِّ جزاءَ لكفرهم

سِرُّ التَّعبير بالظّرفِ (بين) وتَكرارِه:

البينيّةُ في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ تدلُّ على

يـومُ الحسابِ هو يومُ الحزنِ والفِراق لكلِّ مُستكبِر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 244.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.
(3) الراغب، المفردات: (حول).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 539.

الظّرفيّة المكانيّة، وظرفُ البينيّة هنا يدلُّ على الفراق، كأنّه قيل: افترقوا عن مكانِ ما يشتهون، وافترقتْ مُشتهياتُهم عن مكانهم، وفي تكرير البينيّة ما يفيدُ تأكيدَ حصول الفراق في الجانبين[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾:

بعدَ فواتِ زمنِ التّكليف كلُّ مُشتَهىً للكافر أيًّا كان ممنوعٌ

يصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ موصولةً، والعائدُ محذوفٌ، أي: الذي يشتهونه، وتعريفُ الجملة بالصّلة؛ قد يفيد التّعظيمَ بسبب العَهديّةِ المفهومة منَ الموصول وصلتِه، أي: انتفاعُهم بالإيمان بعد فوات زمنِ التّكليف، وما يتوقّف عليه حُسنُ المصير من عدمه، فهو أعظمُ مقصود، وأشرفُ مطلوب، وقد يفيد العمومَ مع الإبهام من غير تعيين؛ زيادةً في الوعيد والتّرهيب، لكون كلِّ مُشتَهىً أيًّا كان سيفوتُهم، حتّى يصل بهم الحالُ إلى يأسهم من تخفيف العذاب، واشتهائِهم وِردًا من ماء يُغاثون به كما في قوله: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 50][2].

ويصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّةً - تؤوّل مع مدخولها بمصدر، أي: حيل بينهم وبين اشتهائهم أو مشتهاهم، والمصدرُ المؤوّل ينتظمُ فيه معنى الثّبوت المصدريِّ، ومعنى التّجدّد والاستمرارِ الفِعليّ، فتحصل بذلك المبالغةُ في تصوير تلك المشتهيات في إلحاحِها عليهم، بما يزيد من ضغط الاحتياجِ إليها في نفوسهم، فيزدادون ألمًا فوق الألم؛ لفواتها وفقدِها[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالاشتهاء:

فـواتُ المرغوبِ مع اللهفة في الحرص عليه يزيدُ منَ الألم والحسرة

عبّر بالاشتهاء في قوله: ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ للتّنبيه على كمال اللهفة في تمنّي المُراد، وللإشارة إلى أنّه بفواتِه منهم قد فاتهم كمالُ اللّذّة، وحصل لهم تمامُ الألَم، ولذلك لم يقل: (ما يحبّون أو

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 209.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 122.
(3) الخطيب، التفصيل في إعراب التنزيل: 22/ 186.

يتمنّون)؛ لتصويرِ مدى أثرِ فواتِ تلك المرغوباتِ عنهم في بشاعةِ العاقبة وشناعةِ المصير.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَشْتَهُونَ﴾:

حُذف مفعولُ ﴿يَشْتَهُونَ﴾؛ للعلم به بدلالة السّياقِ عليه، وهو انتفاعُهم بإيمانهم ونجاتُهم منَ النّار[1]، أو للإعمام، فيتناول الحيلولة بينهم وبين كلِّ مرغوبٍ لهم ولو كان ضئيلًا، ولا يخفَى ما فيه من تهويل الحِرمان الذي لحِقَ بهم وتشنيعِه، وكأنّ غياب ما يشتهونه وحرمانَهم منه واقعًا اقتضى غيابَه لفظًا.

لا حرمانَ أشدُّ من منْعِ الانتفاعِ مـنَ الإيـمـان، والنّجاةِ منَ النّار

بلاغةُ التّشبيهِ المُرسلِ في الآية:

في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ شبَّه فيه هؤلاء المذكورين بالحيلولة بينهم وبين مشتهياتِهم من دفْعِ العذابِ عنهم، بمِثالِ مَن قبْلَهم ممّن كانوا على شاكلتهم فلم يُجابوا إلى ما اشتَهَوا، ولم يُسْعَفوا؛ إذِ استغاثوا، مثلَ قومِ نوح وعاد وصالح ﷺ، وغيرهم[2].

سنّةُ الله ماضيةٌ لا تتخلّفُ عن قومٍ دون قومٍ

فائدةُ القيدِ بقوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾:

ورودُ القيدِ بالمتعلّق في قوله: ﴿فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ يؤيّدُ ما ذكره بعضُ المفسّرين بأنّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ يعني: عندَ الموت؛ لأنّه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، أي: قبْلَ زمانِهم[3]، وهذا فعل ماضٍ يدلُّ على أنّ هذا أمرٌ قد مضى على من سبقَ، ولو كان يومُ القيامة لم يكن قد مضى من قبلُ[4].

لا جـديـدَ في التّاريخ، مصارعُ الظّالمين تتشابهُ فـي الـسّـبـيـل والمصير

دلالةُ التّعبيرِ بمُفردةِ الفعلِ في ﴿كَمَا فُعِلَ﴾:

عبّر بلفظ (الفعل) في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ للدّلالة على أنّ إنزال الحرمانِ بهم هو جارٍ بتأثير القُدرة وقوّة القهر، فيقعُ على

مـادّةُ (فـعـل) تـدلُّ على تقرير المقاصدِ وإنجاز النّيّاتِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 252.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 539.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 318.

الوجه التّامّ منَ الإنجاز والتّحقيق؛ لأنّ (الفعل) يُعبّرُ به عن القدرة على الشّيء[1]، وعلى التّأثير من جهة المؤثّر[2]؛ ليدلَّ على أنّ ما وقع بهم هو منَ الفاعل الذي لا يجري شيءٌ خارجَ فِعله وتأثيرِه، وقد كانوا في الدّنيا يُنكرون فِعلَه سبحانه، بل ويَنسبون ما هو له منَ الفِعل إلى شركائهم ومعبوداتِهم الباطلةِ، فَلابَسَهم فِعلُ ما أنكروه، وحاق بهم ما لم يعبؤوا به، فاستعملَ لذلك مادّةَ الفِعل الدّالّةَ على أصل الإحداث الذي يستلزمُ الأداءَ أوِ التّنفيذ الجادّ الذي لا فتورَ فيه ولا تساهلَ[3].

نكتةُ بناءِ ﴿فُعِلَ﴾ لغير فاعِله:

بناءُ ﴿فُعِلَ﴾ على صيغة ما لم يُسمّ فاعلُه في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾، مع مجيئه على صيغة المضيّ؛ لتسريع حركةِ النّظم بما يدلّ على سرعة حركةِ المعنى في الإنجاز والتّحقيق، أي: فُعِلَ بهم ذلك بأيسرِ وجهٍ، فهلكوا في لمح البصر كأن لم يَغنوا فيها.

كما طوَى الفعلَ في الزّمن سرعةً طـوَى فاعلَه في النّظم حذفًا

معنَى (الباء) في القيد ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾:

والباءُ في: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ لتعدية الفِعل، ومعناها الإلصاقُ، أي: ألصق بهم ما فُعِل بهم.

وجْهُ المجازِ في إطلاق الأشياعِ على النُّظراء:

(الأشياعُ) في قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ المُماثِلون لهم في أصل الكُفر، والمُشابِهون لهم في أصل المصير والعاقبة، فهذا التّشابهُ بينهم يجعلُهم كأنّهم منهم، فلذا عبّرَ عنه بأشياعِهم[4]، وأصلُ المُشايعة: المُتابَعةُ التي يتقوّى فيها النّظيرُ بنظيره، فيصيرُ ما بينهما ممّا تماثلا فيه مُشاعًا بينهما، كأنّ أحد الطّرفين شاع

كـــلُّ شـبـيـهٍ بشبيهه يلتحِقُ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (فعل).
(2) الراغب، المفردات: (فعل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فعل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شيع).

في الآخَر وبُثَّ فيه، وتفرّقَ في أنحائه، حتّى صار كأنّه هو؛ لِتوافِق لِتوافُق ما بينهما وتماثُله[1]، فأطلقتِ المُشايعةُ - هنا - على مُطلقِ المُماثلة على سبيل المجاز المرسَل بقرينة قوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي: كما فُعِل بأمثالهم في الدّنيا من قبلُ، وأمّا يومُ الحشر فإنّه يُحال بينهم وبين ما يشتهون، وكذلك أشياعُهم في وقتٍ واحدٍ[2].

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾:

الاستقرارُ على الشّكّ دليلٌ على تمحّض الكفر

جملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ تعليليّةٌ لِما قبلها، والافتتاحُ بـ(إنّ) المؤكّدةِ أغنى عن حرف التّعليل، كأنّه قيل: (ما نزل بهم منَ الوعيد منَ الحيلولة بينهم وبين رغائبهم؛ ذلك لأنّهم كانوا في الدّنيا في شكٍّ من أمرِ الإيمان، واستمرّوا على هذا الشّكّ وارتضَوهُ، فكان الاستقرارُ على الشّكّ مؤدّيًا لتمحيض الكفر)، ويصحُّ أن تكون الجملة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال يثيرُه قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كأنّ سائلًا سأل: هل كانوا طامعين في حصول ما تمنّوه؟ فأجيب: أنّهم كانوا يتمنّون ذلك، ويشكّون في استجابته، فلمّا حيل بينهم وبينه غشيَهم اليأسُ، واليأس بعد الشّكّ أوقعُ في الحزن منَ اليأس المتأصِّل[3].

نكتةُ جعلِ حالتِهم شكًّا في ﴿شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾:

الشّكُّ واليقينُ في الكفر متساويان في الحُكم والمآل

تعليلُ مصيرهم في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، بما استحوذ عليهم من حال الشّكّ في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾؛ للدّلالة بالأدنى على الأعلى في الحكم؛ لأنّه إذا كان من أحوالهم الشّكُّ في الإيمان، وكان ذلك كُفْرًا، فأوْلَى منه في تقرير كفرِهم: حالُ تيقّنِهم منَ الكفر؛ فلئلّا يُتوهّمَ أنّ الشّكّ في الإيمان

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيع).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 245.

والاستمرارِ عليه ليس مؤثّرًا في حقيقة الإيمان بالانتفاء والزّوال، فخصّه بالذّكر؛ للتّنبيه على أنّ كلًّا من شكِّ الكافر أو يقينِه في إنكار قضايا الإيمان يتساويان في المآل، مِنْ نفيِ الإيمان، وعدمِه، وعدمِ النّظر في دليله[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالكون الماضي:

عقابُ اللهِ مستحَقٌّ، فليس مظلومًا من جوزي به

فائدةُ الكونِ الماضي في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾، فلم يقل: (إنّهم في شكّ)؛ زيادةً في تحقيق النّسبة بين الاسم والخبر، للدّلالة على أنّ حالهم في الشّكّ كان عريقًا، يجري منهم مجرى الدّم، ويُلازمُهم ملازمةَ الطّبع والجِبلّة، ولا يخفَى ما في ذلك منَ الدّلالة على استحقاقهم ما حاق بهم منَ العقوبة، فلم يكونوا معذورين أو مظلومين[2].

دلالةُ حرفِ الظّرفيّةِ: ﴿فِي﴾:

تحقيقُ الكفر باستعمال حرفِ الوعاء

لم يقل في السّياق الكريم: (إنّهم كانوا شاكّين)، بل قال: ﴿كَانُواْ فِي شَكٍّ﴾، أي: غارقين في الشّكّ واقعين فيه، مشمولين به، فكأنّه صار وعاءً لهم، فحرفُ الظّرفيّة يدلّ على تحقيق كفرهم، وشدّةِ غفلتهم[3].

بلاغةُ المجازِ في وصف الشّكّ بالمرِيب:

شكُّ الكافر متجذِّرٌ فيه كالطّبْع والجبِلّة

وصفُ الشّكّ بكونِه مريبًا في قوله: ﴿فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ هو من وصف المعاني بصفات العقلاء والأعيانِ والذّواتِ، فهو منَ المجاز العقليِّ، بإسنادِ ما هو لصاحب الشّكّ (الذّات)، إلى الشّكّ نفسِه (المعنى)؛ للمبالغة في إزهاق باطِلهم، بجعلِه فاعِلًا للرّيبَة وموقِعًا فيها، كأنّه قال: (كانوا في شكٍّ مُشكِّك) كقولهم: (ليلٌ أَلْيَل)، أي: مُتكاثِفُ الظّلمة، فظلامُه ليس كسائر الظّلمات[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 246.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 540.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 540.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 594.

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الشّكّ بالمريب:

الشّكّ ينخرُ في النّفس حتّى يؤذيَها كما لو كان إنسانًا يؤذي

ويصحُّ إجراءُ التّركيب: ﴿شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ على الاستعارة، بجعلِ الشّكِّ كالإنسان، ثم ينسَبُ إليه ما هو من خواصّ الإنسان وهو الإرابةُ، فيكون قد شبّه الشّكَّ بإنسانٍ يصحُّ أن يكون مُريبًا على وجه الاستعارةِ المكنيّةِ التّخييليّة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القذفُ والرّميُ:

الرّميُ أعمُّ والقذفُ أخصُّ

بين القذفِ والرّمي عمومٌ وخصوصٌ، فالقذفُ أخصّ؛ لتقيّده بالرّمي البعيد، ولاعتبار البُعد فيه، قيل: منزلٌ قَذَفٌ وقَذيفٌ، وبلدة قَذوفٌ: بعيدة، وأمّا الرّمْيُ فهو الإلقاءُ والطّرح للشّيء قريبًا كان ذلك أو بعيدًا، وكلًّا منَ القذف والرّمي يستعملُ في الأعيان والمعاني والمقولات، وكلاهما استعيرَ للشّتم والعيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: 4]، و﴿يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: 112]، وقوله هنا: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ هو من مقولات الغيبِ والافتراءِ على اللّه والرّسول، وعبّر هنا بالقذف، لمناسبة البُعد في قوله: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، ولمقابلة استعمالِ القذف في الحقّ في الآية قبْله، في قوله: ﴿رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ [سبأ: 48] فهو يقذِفُ بحقّ الغيب أقاويلَهم الباطلةَ في الغيب، والحقُّ إذا كان مقذوفًا كان أمْكَنَ[2].

الحولُ والفصلُ والمنعُ:

الحولُ هو انفصالٌ مخصوصٌ بالتّغيّر

أصلُ (الحَوْل) يدلّ على تغيّر الشّيء وانفصالِه عن غيره، ولذلك عبّر هنا بالحَيلولة في قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ للدّلالة على الانفصال بينهم وبين ما يرغبون، وللدّلالة أيضًا على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 591.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رمى).

أنّ ما يشتهون لم يعُدّ قابِلا لذلك، بل تغيّر، فلا ينفعُهم، فقد تحوّل عنهم، وتحوّل في نفسِه بعدم نفْعِه[1].

وأمّا الفصلُ والانفصالُ، فهو مجرّدُ حصولِ المفارَقَة والحجوزيّة بين شيئيْن، سواءٌ بقيا على أصلهما أو تغيّرا[2].

الأشياعُ والأشباهُ والأتباعُ:

الأتـبـاعُ أعـمُّ مـنَ الأشـيـاع، والأشـبـاهُ أعـمُّ منَ الأتباع؛ فقد يتشابهُ ما ليس بتابِع

الأشياعُ: يُقال للأتباع الذين لهم قوّةٌ وانتشارٌ بالتّبعيّة القائمةِ بينهم، فهم يتماثلون ويتشابهون في العصبيّة والقوّةِ والتّحزّب لمسلكِهم في الكفْر والباطل، والانتشارِ والشّيوع الذي هو عبارةٌ عنِ التّمكين والنّفوذ، كما كان أمثالُهم في الأمم السّابقة، وهذا معنى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: نظرائِهم السّابقين في الاستقواء بالكفر والتّعصّب له، مع انتشارهم وشيوعِهم في النّفوذ والجاه، فلم يكونوا قِلَّةً أو حُثالةً، وأصلُ ذلك من (الشّياع): الانتشارُ والتّقويةُ، يقال: شاع الخبر، أي: كثر وقوي، وشاعَ القوم: انتشروا وكثروا، وشَيَّعْتُ النّارَ بالحطب: قوّيتها، والشّيعَةُ: من يتقوّى بهم الإنسانُ وينتشرون عنه، وكلُّ من فاق إنسانًا وتحزّب له، فهو له شيعةٌ، والشّيَع: الفِرَق المتحزّبة؛ لأنّ كلّ فرقةٍ تتعصّب لِما لديها وتتقوّى به، واختيرَ لفظُ ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ في الآية، بمعنى أمثالِهم السّابقين الذين هم أتباعٌ لهم في كفْرِهم، كأنّهم اطمأنّوا لباطِلِهم تقوّيًا منهم بمن كانوا عليه من قبلُ، فقد كان لهم فيه سَلَف، وهذا ممّا يقوّي ويُجَرِّئ[3].

وأمّا الأشباهُ: فهم الأتباعُ لمجرّد المُماثلةِ والتّشابه، فمعناه يتعلّقُ بالمُحاكاة في الجوهر أوِ المظهر، كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

(1) الراغب، المفردات: (حول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (فصل).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيع).

[البقرة: 118]، أي: في الغيّ والجهالة، وهذا تشابهٌ في الكيفيّة والجوهر، وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: 23]، وهذا تشابهٌ في الظّاهر، كأنّ الآياتِ تظاهرتْ فتَبِعَ بعضُها بعضًا، فصارت أشباهًا[1].

وأمّا الأتباعُ: فمن (تبع) وهو أصل يدلّ على التُّلوِّ والقَفْوِ[2]، فالشّيءُ يتبع الشّيءَ: إذا تلاه وجاء في قفاه، فهو يدلّ على مطلق اللّحوقِ للغير في شّيء ما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ [غافر: 47]، أي: لَحِقْنا بكم في العمل والمصيرِ.

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شبه).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»